المحاضرة الأولى: الأدب الشعبي: المفهوم والمصطلح.

تمهيد:

قد يكون من الصعوبة بمكان تناول الأدب الشعبي بالنظرة السهلة والتمحيص الهين على مستوى الدراسة الميدانية، نظرا لكونه يشكل ترابطا خيطيا من المعارف الجماعية التي تراكمت عبر أزمنة ممعنة في القدم، ولأنه يجسد هوية ثقافة جمعية عتيدة، احتواها وعاء اللهجات واللغات العامية التي يستصغرها بعض الكتّاب والباحثين. ما يكسب الأدب الشعبي أهميته القصوى من كونه يعتبر جانبا من أهم جوانب الثقافة الإنسانية، متعددة المشارب وتنوع الأفكار واختلاف الرؤى والتصورات، ولعل هذا الاختلاف والتباين يكون من أسباب التزام الباحث بالدقة سواء في التعامل مع المادة موضوع البحث أو مع المنهج الذي يعتمده لبلوغ هذه الغاية، وتبدأ الدقة منذ المرحلة الأولى التي تُجمع فيها المادة، إلى أن تصل إلى مرحلة التدوين والدراسة وتفكيك الرموز والشفرات الشعبية، باعتبار الأدب الشعبي، أدب رموز وشفرات في مختلف أجناسه، ومن هذه الالتزامات: دقة البحث والتحري العلمي الجدير بهذا النوع من التفكير الإنساني، الذي تتراكم فيه المعارف كتراكم الصخور الجيولوجية، وذلك لتلافي الوقوع في بعض المشاكل التي قد لا تخدم البحث العلمي والنص موضوع البحث بشيء، فالمجال بحر شاسع، ودغل شائك، سواء كان ذلك على مستوى الجمع والتدوين أو على مستوى الدراسة التحليلية للمادة، والتي تستهدف الكشف عن دلالات ورموز تراكيب عناصره، التي لا يمكن بأي حال من الأحوال الاستهانة بها.

ولعل عدم الالتزام بالدقة والتروي والحذر يؤدي حتما إلى تعسف الباحث على المبحوث فيه، خصوصا وأننا نكون بصدد أدب يعتمد على الرواية الشفهية واللغة العامية، التي تختلف من منطقة إلى أخرى، رغم أن هذا الأدب في أهم مظاهره يبين بشكل واضح وحدة التفكير الإنساني وإن اختلف الزمان والمكان والظروف والملابسات، التي ساهمت بشكل أو بآخر في إنتاج هذا النوع من التفكير الإنساني.

ولتلافي كل ما ذكر يكون الباحث في الأدب الشعبي، ودارس عناصره ملزما بأن يحيط بماهيته ولو كانت إحاطة نسبية بحدوده، هذا حتى نتمكن من التمييز بين ما هو فردي من حق صاحبه أن يوآخذنا عليه، وما و نتاج جماعي انصهرت في بوتقته عبقريات فردية، وذابت في وجدان الجماعة بأسرها، وبين ما هو ملك خاص وما هو ملك جمعي، فيحافظ على أحقية الملكية لكل فرد أو جماعة، ويمنح حرية تمثله كثقافة، وحرية الإبداع على شاكلته.

1ـ إشكالية تحديد مفهوم مصطلح "الأدب الشعبي":

ولعل تحديد إشكالية مفهوم هذا الأدب يأتي من كونه نتيجة ضرورية لمعرفة في أي المجالات سنتحرك وإلى أي نمط من أنماط التفكير الإنساني ينتمي موضوع المقياس الذي ندرسه، وذلك تجنبا لالتباس المفاهيم، وبالتالي تحقيق النجاح في موضعة موضوعه في إطاره العام، والواقع أن الأدب الشعبي، ومنذ بداية الاهتمام بدراسته جمعا وتدوينا وتحليلا وتفكيكا يطرح عدة صعوبات تتعلق أساسا بتحديد مفهومه، سواء كان المختلفون في

هذا الصدد متعصبون له، أو كانوا ضده، ولقد أوجد هذا الاختلاف في تحديد المفهوم الاختلاف في التفاسير والتحليلات تبعا لتعدد الآراء والتصورات، ويمكن حصر هذه الآراء ضمن ثلاث فرق، هي:

أ ـ الفريق الأول: في فهناك من نهج في تحديده لمفهوم الأدب الشعبي نهج النقاد المتأثرين بالفلكلوريين فذهبوا إلى أن الأدب الشعبي لأية أمة من الأمم هو أدب عامياتها التقليدي، الذي تتوفر فيه شروط مجهولية المؤلف، أو إقصاؤه وصدوره عن الجماعة بطرق شفاهية، كما يتوفر فيه عنصر التوارث جيلا بعد جيل(1) باعتباره وعاء حضارة وقيم إنسانية.

ب ـ الفريق الثاني: فإنه يذهب إلى القول بأن الأدب الشعبي سواء توفرت فيه شروط التوارث ومجهولية المؤلف، شفهيا كان أو مكتوبا، هو أدب العامية، معتمدين في ذلك على فيصل التجربة الفنية، واعتبار اللغة ميزانا للتمييز ، وهذا رأي اللغويين(2).

ج ـ الفريق الثالث: فقد أخذ بمحتوى الأدب الشعبي، مسقطا من حسابه اللغة التي يوظفها الإنسان الشعبي وهو في نظرهم أدب معبر عن ذاتية الشعب، وتطلعاته وآفاقه، سواء توفرت فيه شروط الفريقين أو انعدمت، وهو في نظر هذا الفريق يلتقي بأدب الفكرة وبالتالي يلتقي بالأدب الرسمي(3)، أما الأستاذ [أحمد رشدي صالح] فيذهب في ذلك مذهبا يرى فيه أن الأدب الشعبي هو ((ذلك الأدب المعبر عن ذاتية الشعب المستهدف تقدمه الحضاري، الراسم لمصالحه، يستوي فيه أدب الفصحى وأدب العامية، وأدب الرواية الشفهية وأدب المطبعة، والأثر المجهول المؤلف والأثر المعروف المؤلف))(4).

والصعوبة في تحديد مفهوم الأدب الشعبي تمثل في تداخله مع سائر الفنون التراثية الأخرى بما فيها الفنون التشكيلية والنحت والموسيقى والطقوس والشعائر والممارسات الشعبية الأخرى، وإن كنا نميزه عن غيره من هذه العناصر المكونة للقوام الثقافي والحضاري للإنسان في كل مراحله الحياتية، لكونه متوسل بالكلمة ومسلوك فيه مسلك اللغة الرمزية، التي لا تفيد الإخبار فحسب كاللغة المباشرة، بل تفيد التعبير عن مواقف إنسانية، من حلقات الصراع على جميع المستويات، وتفاعل بنياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، كما تعبر عن سلوكه في المجتمع ،وعن علاقته مع بني جنسه أو مع الطبيعة والكون.

2ـ خصائص الأدب الشعبي:

ولا أرى أن من الصواب الاقتصار على هذه التحديدات التي تبدو ليست ذات أهمية، مقارنة بشساعة الموضوع وأهميته، ويمكن أيضا تحديد مفهومه من خلال بعض مميزاته ومقوماته التي تساعد على محو هذا الضباب، الذي يغطي حقيقة الأدب الشعبي، ويمكن تلخيص هذه المقومات على لسان [هويتمان] في قولته الرائعة والتي

---

[1]ـ ينظر: أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، دار المعرفة، مصر، د ت، ص10. وسعيدي محمد، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص 9.

[2]ـ المرجع نفسه، ص10.

[3]ـ المرجع نفسه، ص10.

[4]ـ المرجع نفسه، ص14، 15.

أراها ذات أهمية قصوى في هذا الباب يقول :((الأدب الشعبي ينبعث من أعمال أجيال عديدة من البشرية، من ضرورات حياتها، من أفراحها وأحزانها، أما أساسه فقريب من الأرض التي تشقها الفؤوس، وأما شكله النهائي، فمن صنع الجماهير المغمورة، والمجهولة أولئك الذين يعيشون لصق الواقع))[1]، فهو أدب عريق، مثقف، واقعي، مجهول المؤلف، صادر عن ضمير جمعي، وربما في اعتقادي أن هذه النقط يمكن أن تنير الطريق أمام أي باحث في مجال هذا الأدب وتخفف من وطأة إشكالياته المطروحة دوما وأبدا.

أ. العراقة:

فالأدب الشعبي عريق، ضارب بجذوره في عمق التاريخ البشري، شأنه في ذلك شأن الفنون التراثية الأخرى، نظرا لكونه ـ من خلال تضميناته ـ يمكن الكشف عن أسرار حياة المجتمعات القديمة، وعن كيفية التغيرات والتطورات التي اعترت الفكر البشري، خصوصا وأنه كان يُساير بعض أنماط هذا التفكير البشري كالسحر والأساطير وإن لم يكن قد انفصل عن باقي الفنون الشعبية الأخرى.

ب ـ المحافظة والعراقة:

هذا يجرنا إلى القول بمحافظة الأدب الشعبي من حيث الشكل، والقدم من حيث المحتوى، لأنه لا زال يحفل بتلك الأساطير والخوارق، التي تعبر عن التفكير البشري في مرحلة طفولته، وبالتالي ننفي عنه الواقعية، والتعبير عن حاجيات الإنسان الحياتية، فالأدب الشعبي ينحى منحى مزدوجا، فهو تقليدي من جهة ومرن من جهة أخرى، لأنه قابل للإضافة والحذف، وذلك لأنه صادر بطبيعة الحال عن الإنسان، والإنسان ميال إلى الالتصاق بحياته وبواقعه تبعا لتفاعل بنياته الفكرية مع سائر بنيات مجتمعه، التحتية والفوقية، على السواء في حدود الواقع، ونظرا لكون هذا الأدب هو القالب الذي يشحن بتلك المعارف وكل تلك المخزونات الإنسانية من مواقف وتصورات، تشكل القاعدة المثلى التي تستقر في نفس هذا الإنسان، ليسير على هديها في حياته، فإنه إلى جانب الحفاظ على الموروث يحافظ أيضا على مسايرة ركب الحضارة التي تنتسب إليها الجماعات الإنسانية.

هذه المرونة هي التي تجعل الإنسان الشعبي يتبنى الماضي الثقافي لأجيال سابقة ويتمثله كثقافة، ويضيف إليه كلما استدعت ضرورات الحياة ذلك، إذ تجعله يسقط من حسابه كل تلك العناصر التي لا تنسجم وظروفه الحياتية، رغم الاحتفاظ بالملامح التقليدية الموروثة، والتي يضيف إليها استجابة للوجدان الجمعي كلما اضطرته الظروف إلى ذلك[2]. ولتلبية كل احتياجاته النفسية التي يحسها، لاستمداد قدراته وخبراته من إطاره الاجتماعي، لأن الأدب الشعبي يشكل ركنا من أركان ثقافته، فإنه ميال إلى الارتباط بالواقع، والتعبير عنه من خلال مخزونه الثقافي مع مراعاة الاحتفاء بالإبداع الجماعي المستمر، وهذا لا يعني انسلاخه عن الماضي كلية، لأنه حي ماثل فيه، ويشكل لبنة من لبناته الفكرية، التي لا يمكن تجزئتها عن كيانه اللاشعوري، فهو رغم أنفه حاضر في وعيه ولاوعيه، فالماضي والحاضر متلازمان في الإنسان تلازما لا انفصام فيه، لكونه يحمل ثقافة بوسائل معرفية معينة،

---

1 ـ المرجع السابق، ص10.

2 ـ عبد الحميد يونس، دفاع عن الفلكلور، الهيئة المصرية للكتابة، مصر، 1974، ص149.

كالمحاكاة والتلقين والتجربة[1]، وإن كان الأدب الشعبي يصدر -كسائر الفنون - عن مصالح الجماعة، فإنه يعرف نتاج الأقدمين المتضمن لخبراتهم، ورغم كونه أدب عوام فإنه أدب مثقف[2]، فهو إذن مزدوج الفعالية، يرتبط بواقع الإنسان وبحياته الراهنة، ويساير ركب التطورات الحضارية، ويحافظ على عراقته المتمثلة بالأساس في تلك التضمينات الأسطورية والخارقة التي يرجع تاريخها إلى طفولة البشرية، سواء كانت تضمينات أسطورية، خرافية، أو واقعية، فإنها تفرض نفسها على الجماعة، مصاحبة الأدب لأنها تعبر في رأيها عن مادتها لا عن شيء آخر ، وإنها الحقيقة وليست الرمز والمجاز لأن ذلك فقط من صنع الدارسين للثقافة الشعبية، أيضا لأنها خارجة عن حدود الزمان والمكان، فالتصورات الخرافية كما يرى أحد الدارسين ليست مختلفة، ولا هي متقبلة عن إرادة أو اختيار، ولما كانت نتيجة عملية مستقلة عن الفكر والإرادة فهي في وعي أصحابها ذات حقيقة لا راد لها، ولا تقبل المناقشة، فالشعوب والأفراد إنما هم أدوات مسخرة لهذه العملية التي تتخطى أفقهم، والتي هم خدم لها من غير أن يفقهوا[3]، وهي في هذا الخروج تخرج عن حدود الإقليمية ، إذ لا يمكن القطع في أصول هذه التضمينة أو تلك، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن هذه التضمينات الأسطورية أو الخرافية، التي تطبع - إن صح التعبير -الأدب الشعبي بالعراقة مرجعها إلى تعبيرها عن مواقف إنسانية سواء من الطبيعة أو الكون.

ج ـ جماعية الإبداع:

وفي هذا المقام تجدر الإشارة أيضا إلى مجموعة من الأسئلة حول المبدع والمتلقي في الأدب الشعبي، فإذا كان هذا الأدب نتاجا فكريا معبرا عن مواقف الإنسان الشعبي، وتطلعاته، وأحلامه وسلوكه، فهل يصح نسبته إلى عبقري معين؟ وهل الشاعر "الراوي" هو المبدع؟ وإن كان لا، فهل نزل من الفراغ والعدم؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات بإمكانها إقناعنا بأن الأدب الشعبي نتاج فردي بالضرورة، ولكن عبقرية الفرد انصهرت في بوتقة عبقرية الجماعة، لتحقيق كيان اجتماعي معين لكون الناس غلب عليهم الاهتمام بالقول فأغمر القائل، و بالتالي اعتبر ناتجا وصادرا عن الجماعة، لأن الفرد ليس من حقه إلا شرف الانصهار في كيان الجماعة، وهذه سمة من أهم سمات الأدب الشعبي، التي تميزه لأنه أدخل في الجهد الجماعي عوض الجهد الفردي فانعدم فيه ظهور الشخصية الفردية ، ورغم ذلك فإن هذه الميزة لا تمنحه تحقيق الحياة بالتعبير ، كما أنها لا تخرجه من دائرة الفنون، فالشخصية الجماعية تقابل الفرد من حيث النضج، واكتمال الشخصية نفسيا ووجدانيا[4].

فالأدب الشعبي يتسم بالجماعية، ليس فقط لأنه نتاج جماعة معينة في عصر بعينه، بل لأنه يشكل تراكما على مر العصور، خصوصا إذا سلمنا بأن التعاقب المرحلي في التراث الشعبي لا يشكل انتقالا كاملا، لأن التدخلات المرحلية تكون بمثابة سلسلة تراكمية، هذه السلسلة المترابطة تعبر عن حلقات الوعي الشعبي

---

[1]ـ عبد الحميد يونس، التراث الشعبي، دار المعارف، سلسلة كتابك، عدد 91، دت، ص17.

[2]ـ عبد الحميد يونس، دفاع عن الفلكلور، ص 151.

[3]ـ محمد عبد الرحمان مرحبا، قبل أن يتفلسف الإنسان، موسوعة الثقافة الفلسفية، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1958، ص17.

[4]ـ نبيلة إبراهيم، قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، دار العودة، بيروت، 1974، ص136.

المفقود[1]، ولأن هذا النتاج، وجد بصورة جمعية، لا بالصدفة لأن وراءه تختفي عبقريات فردية مادام بالإمكان نسبة أي نص تتبناه الجماعة إلى أدبها الشعبي، وإن كان معروف المؤلف، ولكن على مر الزمن يغمر صاحب النص، ويهتم بإبداعه، وذلك لأن هذا النص تنبني عليه تراكمات تجعله يتسم بالجدة، لأنه يتعرض للإضافة والتغيير، تبعا لضرورات الحياة الشعبية.

د. الشفاهية:

أما بالنسبة لطريقة تردد الأدب الشعبي بين الجماعات فإنه بحكم أحقية الملكية الفردية، فإنه يتردد بالرواية الشفهية وفي المجالس وليالي السمر، وفي كل خطوة يخطوها الإنسان الشعبي في حياته، فهو ينتقل بهذه الطريقة، وبحكم الفطرة سيظل مترددا بين الجماعات معتمدا على الرواية الشفوية[2]. وتبعا لهذا نرى أن الرواية ليست مقصورة على أشخاص معينين، كما هو الشأن لبعض المجتمعات التي يحتكر فيها أشخاص بعينهم رواية القص الشعبي، وأنه في حالة روايتها من طرف آخر يعتبر ذلك خرقا لممنوع، لأنها تبقى مضمونة لخلف هؤلاء بحق التوارث[3]، ولعل هذه الحرية في الرواية هي التي تضمن للأدب الشعبي الاستمرارية، والدوام، والانتشار في سائر الأقطار، والبقاع وهذا ناتج عن هجرة الرواة وعن عامل التأثير والتأثر ، المتبادل بين الشعوب. وقد يمكن أن نلمس ذلك بكل وضوح في التشابه والتجانس القائم في الآداب الشعبية بين مختلف الأمم، فالأدب الشعبي يفرض نفسه على الإنسان الشعبي ، وبالتالي يفرض روايته عليه فرضا لأنه لا يمكن فصله عن البنية الثقافية الشعبية، فهو دستوره، وإبداعه ،ومقنن قواعده و قيمه العليا ، ومخزونه الثقافي ، وهذه الأهمية تفرض الرواية، فيرويه تبعا لتصرفاته، سلوكاته مع غيره، وعلاقته مع الطبيعة والكون، وفي إطاره الاجتماعي العام.

3 ـ أهمية دراسة الأدب الشعبي:

تكمن أهمية دراسة الأدب الشعبي، في توطيد العلاقة بين ماضي الشعب وحاضره، وربط هذا الحاضر بتطلعات الشعب المستقبلية، ومن هنا تتعاظم أهمية مؤسسات البحث في التراث، وتشتد الحاجة إليها في الوطن العربي، ولا سيما أن القائم منها سطحي بسيط، بل ربما أدّى إلى نتيجة عكسية تظهر فطرية التراث، أو قدّمته بشكل مهلهل سخيف، يتضاحك حوله مثقفو الأمة.

إن دراسة التراث ـ والأدب الشعبي جزء منه أساس ـ لا تكون بجمعه وتدوينه فقط، وإنما الجمع والتدوين يمثلان النقطة الأولى لمسار البحث، إذ لا بد من دراسة تراثنا وتحليله، كي تتم دراسة المجتمع من خلاله، ولكي يتمكّن الشعب من إدراكه، وتذوقه والحفاظ عليه نتيجة لذلك.

من هنا تتأتى مسؤولية الشعب، والباحثين في مجال الأدب بشكل عام، والشعبي منه بشكل خاص، في دراسة هذا الأدب بشكل جدي، ووضعه تحت مجهر النقد التحليلي، لمعرفة امتدادات هذه الأمة، المادية، والمعنوية، والقيم، والمفاهيم، والاتجاهات، التي كانت أساساً لثقافتها، فنحن نمارس كثيراً من فنون تراثنا

---

[1] ـ عبد الحميد يونس، التراث الشعبي، ص7.

[2] ـ عبد الحميد يونس، دفاع عن الفلكلور، ص149.

[3] ـ فريديريك فون ديرلاين، الحكاية الخرافية، تر: نبيلة ابراهيم، دار القلم، بيروت، دت، ص 144.

وأنشطته بشكل تلقائي، فطري يومي، مثل الغناء، والرقص، واستخدام المثل الشعبي.. إن هذه الممارسة تتعمق إذا أدركنا كنه هذه الفروع والأنشطة، وربطناها بماضي الأمة وحاضرها.

ورغم هذا العرض لإشكالية التعريف بالأدب الشعبي وببعض سماته وخصائصه وأهمية دراسته، فإن القول في هذا الباب بهذه الطريقة الموجزة، لا يمكن أن يعطي الأدب الشعبي حقه المنوط به من الدراسة، لأنه تجسيد لهويات متداخلة، يستحيل الفصل بينها لأن الماضي يحيا فينا كما نحيا في المستقبل، والتكوين الإنساني ثقافيا يتم من خلال تداخل الأزمنة، تداخل الماضي في الحاضر والحاضر في المستقبل.